

الاشوريون او النساطرة^{*}

بنلم الاب فردينان توتل البسوي

الينا كتاب عنوانه «الاشوريون وجيرانهم» تأليف الدكتور ويكرام ، فلتت اليه نظر القراء ، ونبدي فيه ملاحظة ، وتلخص منه ما تروق معرفته عن الكنيسة الاشورية .



راى صاحب الكتاب ان الاشوريين او النساطرة المقيمين في بلاد ما بين النهرين انما هم سلالة الدولة الاشورية الكبرى التي ازدهرت نحو القرن الماشر قبل المسيح ، ثم تقلص ظلها وسقطت ، ولم تندثر بقاياها كلها ، او على الاقل « ليس من دليل واضح على اندثارها التام » . وما بقاياها الا النساطرة المقيمون في ديار الموصل ، والكاثوليك منهم يدعون الكلدان ، ويسمي المؤلف كنيستهم «الاشورية» ، ويتخذ برهاناً على كونهم حقيقة احفاد الاشوريين القدماء : انهم قطنوا على مدى الاجيال البلاد التي كانت في قديم الزمان مملكة اشور ، وان لهم تقاليد ينتسبون بها الى الاشوريين ، وان لغتهم «الارامية» هي في اصلها واحدة مع اللغة الاشورية ، وان ملامح وجوههم وتقاطيعها اشبه باللامح والتقاطيع المحورة على الآثار الاشورية الثابتة الى يومنا .

والدكتور ويكرام انكليزي الجنس ، بروكستني المنهت وهو متضلع من تاريخ الشرق القديم ، ومطلع على احوال الطوائف «جيران الاشوريين» . وكتابه بجمله اشبه بتاريخ الشرق العام لانه ، وان يكن وضع خصوصاً في الاشوريين ، فقد يكلتنا على الدول والشعوب التي توالته على تعاقب العصور في ظهورها على مسرح بلاد اشور واطرافها مثل بابل وفارس واليونان والرومان والبارتين والعرب والتر والتر ، وعن الملل التي نشأت في تلك البلاد من عناصر الشعوب الصغيرة التي اخضعها الدول الكبرى لسلطانها وعن علاقات الملة الاشورية بالعرب ورومة .

* The Assyrians and Their Neighbours, by The Rev. W. A. WIGRAM, G. Bell and Sons, London, 1929.

ولهجة المؤلف في البابا وتماطيه مع الكنائس الشرقية صادرة عن نظراته الشخصية ، وهي لا تطابق الحقيقة دائماً . فانه ينوه بان الاب الاقدس اشد حرصاً على بسط نفوذه على الشرق منه على حفظ الايمان ، وانه يتداهل مع الشرقيين في امر العقيدة ، ويفضّ النظر عن شواذاتهم في ممارسة النظمات الدينية والقوانين الكنائسية على شرط ان يعترفوا بسلطته الرسولية . وهذا القول والحقيقة على طرفي تقيض . لانه ، وان تكن الظروف الجأت الاب الاقدس ، في حين من الاحايين ، الى الكسوت او الى غرض النظر دفناً لشر اعظم ، فلم يرض قط بصالحه من لم يتفق والكروني الروماني بالايمان والتعليم .

ولا ادري هل يقتنع الاثريون ببراهين المؤلف على « اشورية » النساطرة ؟ فانهم ان انتسبوا للاشوريين ، فغيرهم ايضاً ينتسب الى ذلك الشعب القديم كالقبيلة الكردية التي ذكرها الجغرافي ركلو (Reclus) ؛ وان سكنوا بلاد اشور القديمة فالأكراد ايضاً سكنوها . اما ملامح التشابه بين صورة احد النساطرة في يرمنا وصورة احد الاشوريين القدماء . فليست دليلاً قاطعاً على « اشوريته » وكون لغة النساطرة ارامية الاصل فقد يدل ايضاً على اصلهم الارامي . اما اصلهم الاشوري فاني لنا ان نثبت بالتأكيد ، وبين برصوما ، مؤسس مدرسة نصيين ، وانقراض الدولة الاشورية مائة عشرة قرون على التقريب . او لا يذكرنا ذلك النسب بمن ينتسب الى الاسكندر ذي القرنين من سكان بلادنا الروم الملكيين ؟ او بمن ينتسب الى المردة من غيرهم ؟

ولكن ما بالناس ناقش المؤلف رأياً يبدل على النساطرة ثوب العز والفخر ، وما احزانا بالاصحاء لحديثه عن هذه الفئة المسيحية التي تقربت منا كثيراً بعد الحرب ، وفي هذه الايام . وكتاب الدكتور ويغرام سلس العبارة أنيس المجالسة . يروقتا ان تقتطف للقراء زبدة تعليقاته عن الكنيسة النسطورية او « الاشورية » .

* * *

نال النساطرة ما نالهم من الاضطهاد في القرون السابقة للإسلام ، على الخصوص ايام توتر العلاقات ونشوب الحروب بين بيزنطية والفرس ، لان موقع بلاد اشور غربي المملكة الساسانية ، هو على الحدرد بين الدولتين فما ان

تصطلح مملكة بمملكة الا وتصطك اطرافها ويجل فيها الدمار . فلما تنصر قسطنطين وأعلن الدين المسيحي ديناً للمملكة الرومانية ، اصبح كل مسيحي في المملكة الساسانية موضعاً للشبه وموقماً للنقمة . وكانت تلك النقمة تنهال ويلات على النساطرة اذا افترط ملك بيزنطية بتفاخره بجماعة المسيحيين في الشرق ؛ واذا غضب عليهم الفرس عباد النار وخافوا على ديانتهم من دعاية المسيحيين . وكانت تتوالى الاضطهادات الى ان يحكم في الفرس ملك حليم يرضى للمسيحيين بعض الحرية فتكون « الطائفة » والملة الاشورية في ظل تلك السياسة المتساهلة . ولم يعرف الشعب الساكن بلاد اشور الجدل الذي القى الاضطراب في الكنيسة عند ظهور اريوس وبدعته ، لكن الكنيسة النسطورية انشئت عن الايمان الكاثوليكي عند ظهور بدعة نسطور . ولعل دواعي الشقاق الاصلية لم تكن عن فساد في العقيدة ، ولكن عن سوء تفاهم في الالفاظ التي كانوا يعبرون بها عن ايمانهم ، ولم يكن معناها محددًا محصورًا كما حددته الكنيسة من بعد ، دفماً للالتباس . على ان القلوب كانت نائرة من بيزنطية ، وذلك ما حدا بالمسيحيين الشرقيين في الغالب الى رفع لواء البدع تمرداً ، لا على التعليم الكنائسي ، ولكن على السلطة العلمانية المتدخله بشؤون الايمان وبنا هو ليس من صلاحيتها ، فذهب بعضهم مذهب المونوفيزية ، وغيرهم مذهب نسطور ، لئلا يلتقوا وبيزنطية في توحيد كلمتهم . وما عم ان انقلاب الخلاف في الكلام انقساماً في العقيدة وخلافاً حقيقياً نشأت منه الطوائف .

ولما فتح الاسلام الشرق المسيحي ، كان ذلك الانقسام بين المسيحيين اعظم مساعداً للتأخيم على تلك الاعناق ، فساعدوا عليه وجعلوا لكل بدعة او طائفة كيانها الادبي واستقلالها الاداري ، وتمعروها بامتيازات خالها الجهال خيراً ، انما هي التي كانت الضربة القاضية على وحدة المسيحيين واتفاقهم ، وهي التي لا تزال تانحجها الى يومنا تررع الفتن بين طائفة وطائفة وبين كنيسة وكنيسة حتى في منطقة واحدة بل في قرية واحدة .

فتح العرب بلاد الشام وفارس فاتخذوا معلمهم ومهذبيهم من النساطرة . وكان هؤلاء يرسلون شبانهم الى مدرسة الرها الشهيرة . ثم جلس على كرسي

الاسقفية برصوما النصيني فانشأ في مدينته معهداً للطوم ، وهذب فيه شبان ملته على مذهب افلاطون وادسطو ولم تلبث ان ازدهرت مدسة نصيين . فلما نظر الخلفاء الى الامم التي اطاعتهم وجدوا الريان النساطرة اقرب اليهم لغة من غيرهم فمهدوا اليهم بالتعليم والترجمة . فالتقى العرب واليونان على ارض اشور وكان الفضل بتآلفهم للنساطرة .

وبلغت الكنيسة النسطورية اوج عزها في تلك الايام ، فمدت ٢٥ متروبوليتاً . والين للبطريرك تيسوطاوس . وكان لما اسقف في دمشق ، وآخر في اورشليم . وكان الشعب النسطوري مقدماً على العمل ، غيراً على الدين . فراح في البلاد وبلغ سومطرة والمالابار والصين ، وبشر بالمسيح ورحل اساقفته الى الشمال وعاشروا الاكراد وسكنوا تحت الحيم ، وبشروا في الجبال .

قال المؤلف : « ان المسيحية هي شرعية الاصل ، واذا عرضها الشرقيون على الشرقيين فقد تظهر كأنها وضعت خصيصاً لاجلهم . سارت الكنيسة « الاشورية » من غير ان تتجهز بما تتجهز به الجماعات التبشيرية في عصرنا من امتعة واموال ، ومدت فروعها بنسوها الطبيعي في تلك الاقاليم ذاتها التي طالما طمعت الاراساليات المسيحية بفتحها في يومنا . منذ اوائل القرن السادس ظهر في مرو وفي هراة وفي سمرقند ، اساقفة وروزاء اساقفة ! لو اتبع لنسها اليوم ان نرى طائفة مسيحية في تلك البلاد من اهلها ذاتهم ، فاي عزيز او ثمين لا نبذل للحدول عليها ؟ اما المؤسسات المسيحية النسطورية فقد تآصلت في البلاد وصارت وطنية تماماً حتى سرهما « المعابد القرية »

وحدثت الحروب الصليبية وزحف المغول من اواسط آسية على بلاد ما بين النهرين ، ولم يكونوا مسلمين بل كان في مصكر ملكهم رجال من الاكليروس النسطوري واللاتيني . فارسل خان المغول الاكبر يهب الله البطريرك النسطوري المذهب ، الصيني المنشأ ، الى البابا سفيراً خاصاً من قبله . ولم تتضح غاية تلك الوفادة ، وربما صدرت عن السلطان باغراء احد رجاله المسيحيين على امل اجتذاب المغول الى اعتناق المسيحية . ولعل السلطان طمع بالتقرب الى البابا عسى ان ينال بواسطة نجدته على دولة المسلمين مناوئيه .

اما يهب الله فرض وانتدب احد اقربائه المدعو صوما ليقوم بالفارة مقامه . فجال صوما بلاد القرب ، وحل رومة عند ارتقاء البابا نيقولاوس الرابع السدة البطرية . فآكرم الاب الاقدس ضياقته . اما استنهاض همم الصليبيين تجسدة للموتول ، فلم يكن من سبيل اليه بعد ما سبته الحروب الصليبية من الحناز للافرنج . لكن البابا بعث رهباناً من الفرنسيسكان الى المغول ليحثوا ارشالية مسيحية في بلاد التتر . وفي غضون سقطة عكا من ايدي الصليبيين سنة ١١٩١ . وتوفي السلطان المغولي صديق المسيحيين ، وخلفه في الملك غازان . فاعتنق الاسلام هو وشعبه . وغابت من ثم آمال المسيحية بتنصير الموتول . وما كل فرصة تنال ا هذا . ولو ان المسيحية في الشرق ظهرت عزيزة ، قوية ، غير مقتسة ولا مشوثة بالوان البدع ، لاستهوت قلوب المغول او الاتراك ، وهم في ظلام الوثنية ، يستهدون الى اعتناق ديانة يتخذونها ديانة قومية لهم . ولو تنصر الاتراك اي غير لم يكن ليرجى من تنصرهم ، وفيهم ، على صلاحية عودهم وقساوتهم ، الصفات الحسنة التي كانت سوف تزدهر فيهم ازدهارها في امثالهم من الشعوب الاوربية البربرية بعد ان دخلت في طاعة الانجيل ، ونالت منه روح الكرم والكفران بالذات والمرودة المسيحية ، ففتحت العالم للعمران وهذبت الذراري المالكة على اعناق الانام .

وكانت لحوال الطائفة النسطورية في بلاد الموصل ، على العهد التركي والهد التركي ، كاحوال سائر الطوائف المسيحية . اجتاحت تيمور البلاد ، وعاث فساداً في ما بين النهرين والموصل ، واعمل السيف في المسيحيين ، فاهلك اكثر من ثلاثة ارباع القاطنين ديار الموصل . اما الباقون فنبذ شلهم في جبال هيكار وما عثموا ان لمواشتاتهم ، وانضموا الى يواقي المسيحيين الذين اقاموا في الجبال وفي منطقة بحيرة اورمية ، فانبعث حياتهم الطائفية من موتها . ولكن الاضطهادات التي دامت زهاء ٢٥٠ سنة آثرت في حياة الشعب الدينية فاضطربت احواله ، وترعزت اركانه ، وذلك ان وظيفة البطريرك اصبحت محصورة بين اعضاء اسرة واحدة ، اذ انه كان حاملاً يتقلد وظيفته ، يستي خلفه من بعده ، وان كان ولدًا قاصراً . فكان اختراق حرمة القوانين في انتخاب رئيس

الكليروس مدعاة للانتقام في الملة .

في السنة ١٥٥٢ ، توفي البطريك شمعون بار ماما ، فقام ابن اخيه شمعون دنكا يطالب بالبطريركية لنفسه . فطافه الكثيرون وانضوا الى رئيس دير ربان هيرز بالقرب من الموصل ، واحتجوا على اختراق حرمة قوانين البيعة في تميم احبارها ، ولجأوا الى البابا . وكانت تلك الحوادث اصلاً للحركة التي نشأت منها الطائفة الكلدانية الكاثوليكية .

وفي الحرب المسكونية حاولت تركيا ان تقنع رعاياها المسيحيين انها تريد موالاتهم وخيرهم . وما عثت ان قامت عليهم تفرقهم وتبيدهم ، فطرحتهم في لجة اليأس . واشعر النساطرة المقيسون في بلاد الموصل ، وبجوزار بحيرة اورمية بدنوا اجلهم ، وقد سلح الاتراك الاكراد عليهم ، فلاذوا بجحى روسية ودخلوا في مصاف المتحالفين وتسلحوا وتمنوا بجيالمهم . ثم سقط القيصر ، وتضعفت اركان روسية ، وانقطعت مساعدة الروس للنساطرة ، ونفذت الذخيرة بين ايديهم ، وقتل بطريركهم مار شمعون اغتيالاً على يد الاكراد ، واحاطت بهم الابهوال ، ففقدوا العزائم على الرحيل الى بنداد ليدخلوا في حنى الساطة البريطانية . شدوا رحالمهم وساروا وقطعوا مسافة خمس مئة ميل من جبال واودية ، في بلاد انقلب سكانها عليهم كالعقارب . فأت منهم من مات ، ونجا من نجا ، الى ان بلغوا دار السلام فاسكتتهم السلطة البريطانية بعقوبة شمالي بنداد على نهر ديبالي .

واظهر المكر النطوري او الاشوري بأساً وشجاعة أعجب بها ضباط الانكليز . فكونوا منهم فرقةً جهزوها بالمدات واعتمدوا عليها في شؤون العراق الحربية . ومضت ايام الحرب المسكونية ، وما ان الاشوريين يتوقون الى العودة الى جبالهم والى تكوين وطن قومي . وقد يخاف عليهم صاحب الكتاب ، الذي اخذنا عنه هذا المقال ، ان تتحد كنيستهم بالكنيسة الكلدانية الكاثوليكية فتضيع هويتها وتنتقض بذلك « سلالة ابراهيم » . ولكن لا خطر عليهم من الانقراض باتحادهم بالكنيسة لان ابناء الكنيسة الرومانية ، على اتحادهم بالايان والخضوع لخليفة المسيح ، لا ينفكون محافظين على قوميتهم فهذا يكون انكليزياً وذاك ارمنياً وهذا « اشورياً » الخ . . . ويكونون جميعهم مسيحيين كاثوليكين .